الفصل الأول

لمحة
عن فن الخطابة

obeikandl.com

obeikandl.com

لمحة
عن فن الخطابة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين:

الخطابة الدينية كانت، وستبقى، أهم وسيلةٍ لإيصال الفكرة للناس، وتوجيههم الوجهة الصحيحة، لذلك كان من الضروري جداً الاهتمام بالخطبة كعنصر أساسي من عناصر الدعوة الإسلامية، يلتقي فيها الخطيب بجموع غفيرة من الناس من شتى المستويات الفكرية، والثقافية، والعلمية، لأن الخطبة بهذا تشكل محوراً أساسياً لمخاطبة المجتمع بكل اتجاهاته.

أولاً - ركائز الخطبة:

تتنوع الخطبة بتنوع موضوعاتها وأهدافها، فمنها الدينية (كخطبة الجمعة، والعيدين، والخسوف، والكسوف، والاستسقاء) ومنها العلمية، ومنها الاجتماعية، ومنها خطب المناسبات.

ولا بدّ لكل خطبةٍ حتى تكون ناجحةً أن تعتمد على ركيزتين:

١ - الإقناع.

٢ - الاستمالة.

obeikandi.com

وقد تصير الخطبة كسيحة لا تقوى على القيام إذا فقدت هاتين الركيزتين، كما أنها تصبح عرجاء إذا فقدت إحداهما.

١ - الإقناع:

هو مخاطبة العقل الرشيد بالمنطق السديد، ونصب الأدلة والبراهين، وبسط الحقائق والموازين للوصول إلى قناعة المستمعين، فإذا ما كان حديث الخطبة يدور حول حقيقة البعث بعد الموت مثلاً، فلا بد من قيام الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة، من نصوص الكتاب والسنّة، والأدلة العقلية التي تبين حكمة الله من إحياء الموتى.

فمن الأدلة مثالاً على إحياء الموتى، عندما ألقى أحد المشركين هذه الشبهة في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٨].

فأجاب الله تعالى عن هذا السؤال بخمسة أدلة:

أولها: قوله مع إدراج سؤاله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ﴾.

وثانيها: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٩].

وثالثها: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٨٠].

ورابعها: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٣٦/ ٨١].

وخامسها: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢].

وخلص إلى النتيجة الحتمية العقلية المنطقية في الآية الخاتمة:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٨٣].

وانظر معي كيف أنَّ الله ﷻ قد ضرب الأمثال للناس وهو تقريب الحقيقة إلى الأذهان، والوصول إلى القناعة العقلية بمقارنة الأشياء بعضها ببعض، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٣].

وهو مثال على ضعف الإنسان وعجزه، حتى أمام أضعف المخلوقات، وضعف آلهته التي كان يشرك بها، عن خلق ذبابة صغيرة، بل وعن استرداد ما تسلبه منه، ألا فكم تكون ضآلة قدرة الإنسان الذي قهرته جرثومة لا تُرى بالأبصار، وذبابة حقيرة لا تُدرك ولا تُطال، فكيف به إزاء خلق السموات والأرض وهي أكبر من خلق الناس كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٧].

٢ - الاستمالة:

وهي تحريك العاطفة البشرية، واستثارة كوامن القلب بما طُبع عليه من تأثر بالحوادث، ورحمة بالضعفاء، وبما فطرت عليه جِبلّته من محبة الله ﷻ وخشوع بين يديه، وبر بالوالدين، وصلة للقرابة، وإحسان للمساكين، ولو أنك قرأت قصص الأنبياء في القرآن الكريم، لوجدت النور والضياء، والكمال والجمال، يشع في ثناياها يوقظ النائم، وينبه الغافل، فمثلاً: قد يستعمل القرآن الكريم أداة الاستفهام لإيقاظ الوجدان: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ٧٩/ ١٥].

وهنا تستثار العواطف شوقاً إلى ما بعد الاستفهام، فتنزل الآيات بعد ذلك على النفس، كأنها قطرات الندى على الزهرة الظمأى.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ٢٠/ ١٠].

وقد يقدِّم القرآن الكريم للمراد من الذكر باستفهام يشوق النفس فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ٦١/ ١٠]، فتجد أن النفس تتطلع إلى تلك التجارة، فيقول الله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ٦١/ ١١]، وهكذا نجد أن الاستمالة تعتمد على الأساليب البلاغية التي تبعث في النفس نشاطاً، وتجدد فيها اهتماماً.

والأساليب البلاغية كثيرة مثل: الاستعارة، والتشبيه، والكناية، والمحسنات البديعية، وعلم المعاني، الذي يشتمل على القصر، والوصل، والفصل، والإيجاز، والإطناب، والخبر، والإنشاء، فكل هذه الأدوات تبعث في النفس رونقاً وبهاءً، وتشع لها العقول جلالاً وجمالاً، وكما أن القصة تخاطب العاطفة مخاطبةً ذات عمق، فإن الأساليب التي تأخذ بالنفس كل مأخذ لروعتها، تكسو المعاني ثوباً قشيباً رائعاً، «فإن من البيان لسحراً»[(١)].

ثانياً - أسس الخطبة:

لكي تكون الخطبة وافيةً كاملةً جامعةً، لابد أن يتوافر لها ثلاثة مكونات: أولها: المقدمة، ثانيها: الموضوع، وثالثها: الخاتمة.

١ - المقدمة:

يجب أن يكون فيها الحمد لله ﷻ والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه البخاري: ١٦/ ١١٤، ح: ٤٧٤٩ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

كما أنّه يجب أن يكون فيها شيء من براعة الاستهلال؛ وهو ذكر شيء من الموضوع في المقدمة، مثلاً: إذا أردت أن تتكلم على الصدق تقول: الحمد لله، الحمد لله الذي وصف عباده المؤمنين بالصدق، وأثابهم عليه بقوله: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢٤].

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق المصدوق، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.

وبذلك - كما ترى - تكون المقدمة ممهدة للموضوع.

٢ - الموضوع:

يجب أن يكون الموضوع مكملاً للمقدمة.

ويجب أن يكون الموضوع؛ إما دعوة لأمرٍ ما، مثل: أن يدعو إلى الإنفاق فيذكر تعريفه، ثم يحضّ ويرغب فيه، ثم يذكر ما للمنفقين من أجر عظيم عند الله.

أو أن يكون نهياً عن أمرٍ ما، مثل: الغيبة والنميمة، فيذكر مضارّها، وكيف يعالج المرء نفسه منها، ثم يذكر العقاب لمن لم يكفَّ عن الخوض فيها.

وعلى الخطيب أن يكثر من الشواهد من الكتاب والسنّة وعيون الشعر العربي، وعليه أن يسوق قصة تدعم موضوعه، فللقصة أثرٌ بالغ في تمثل الموضوع وفهمه، والتأثر به، والمسارعة إلى تطبيقه.

وعلى الخطيب أن يكون ملمَّاً باللغة العربية، أو بأكثر قواعدها، حتى لا يخطىء بإلقاء الكلمات والعبارات، مما يعكر فيها صفو السامع.

وعلى الخطيب أن يضبط الكلمة المُشكِلَة فقط، فقد قالوا: (إنما يُشكَلُ ما يُشْكِلُ)، وخصوصاً في تشكيل الآيات والأحاديث.

وعلى الخطيب أن يستخدم أسلوب الترغيب والترهيب، لا أن يقتصر على أحدهما.

٣ - الخاتمة:

أما بالنسبة إلى الخاتمة فعلى الخطيب أن يلمَّ بجميع الأفكار التي طرحها في المقدمة، والموضوع، ليعطي نتيجة مهمة في الخاتمة، وبذلك تكون الخاتمة ملخصة للموضوع، وبهذا تكون الخطبة كاملة بجميع أركانها.

وهذا مثال كامل من القرآن الكريم على المقدمة، والموضوع، والخاتمة، التي تشكل موضوعاً منسجماً مناسباً متناغماً.

قال الله تعالى في سورة الواقعة، وهو يستعرض أصناف الناس يوم القيامة بمقدمة، ثم عرض للموضوع، ثم خاتمة:

المقدمة: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥٦/ ١-٦].

ثم يأتي التلخيص في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٧-١٠]، فهؤلاء هم الأصناف الثلاثة للناس يوم الحساب.

ثم يأتي الموضوع مفصلاً لأحوال هذه الأصناف وصفاتهم يقول تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا

سَلَمًا سَلَمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ١١-٥٦].

ثم تأتي الخاتمة في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٨٣-٨٥] ... إلى أن يقول مجملاً مصير كل صنف من هذه الأصناف وملخصاً: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٨٨-٩٦].

فانظر إلى روعة القرآن وجلاله، كيف قدّم للموضوع بمقدمة موجزة، ثمَّ فصّل الموضوع تفصيلاً رائعاً، خاطب فيه العقل والعاطفة، ثمّ لخّص الخاتمة تلخيصاً، وبذلك جعل الموضوع واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار.

ثالثاً - إعداد الخطبة:

لكي نُعدّ الخطبة إعداداً سليماً، لابد أن نتبع الأمور التالية:

١- نحدد الموضوع.

٢- يجب أن يكون الغرض واضحاً، والهدف جلياً.

٣ - ثم بعد ذلك نُكَوّن الفكرة الأساسية التي يدور حولها الموضوع.

٤ - ثم نجمع النصوص المختلفة من القرآن الكريم والسنّة.

٥ - ثم نطبق بذكر مثال من قصص الأنبياء، أو السلف الصالح.

٦ - ثم إن الخطيب يكون ناجحاً باهراً، عندما يربط الحاضر بالماضي، وعندما يحاول طرح حلول مناسبة لمشاكل الحاضر.

obeikandl.com